فوائد في العوائد

"كل امرئ وما تعود" حديثٌ سلمت به البداهة وحكمٌ ايدهُ الاختبار ومعناهُ ان من تملكت فيهِ عادة من العوائد ظهرت في خلال اعمالهِ بلا قصد ولا تكلُّف . والعادة في شرع العارفين ليست كالخُلق لان الثاني يشترط فيهِ ان يكون غريزيًّا مخلوقًا في نفس المرء كما قال حسان الانصاري عن قومهِ :

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهمُ او حاولوا النفع في اشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك منهم غير محدثةٍ ان الخلايق فاعلم شرُّها البدعُ

وذلك بخلاف العادة فانها تؤخذ بالممارسة والتكرار . اما التخلُّق او التكلُّف فليس بخلق لانهُ ليس طبيعيًّا موضوعًا في الفطرة ولا بعادة لانهُ ليس مستمرًّا . قال الشاعر

فيهِ الكراسة خلقٌ لا يزايلهُ ليس التخلُّقُ بالاخلاق كالخُلقِ

ووجود مثل هذه الصفة في الناس دليل العجز والجبن ولذا لا اتعرض للبحث عنها

وقد قالت علماء الاخلاق ان المرء مجموع عادات ومعناهُ ان قيمة الانسان ومقدار نفعهِ يتوقفان على ما يبديهِ من الحركات الاختيارية التي تظهر فيهِ بغير جهدٍ او تكلُّف فان كانت حسنةً وثق بها الآخرون واتبعوها وان كانت غير ذلك هجوها وهجروها

والعوائد المقتبسة اذا ثبتت في نفس الانسان وامتزجت بصفاتهِ الباطنية وظهرت في كل حين منهُ بلا تعسُّف كان حكمها فيهِ حكم الغريزة وامكننا ان نطلق عليها لقب سجية او خلق . وقد يتحف الانسان بعادةٍ او سجية مضرة بغير ترقٍ تنطرق اليهِ من باب المعاشرة والقدوة فتصير ملكةً فتتسلط على اعضائهِ تسلط الرأس على البدن فيقع في حبائل اهمالهِ ويحصد نتيجة تغافلهِ . ولذا كان التروي من اوجب الامور واستعمال الحكمة من الزم الوسائط للحذر من الوقوع في اشراك العوائد المضرة

لنتصور انسانًا أُلزم بحكمٍ ان يحمل طوقًا من الحديد المطروق الثقيل حول رقبتهِ او سلسلة حول معصمهِ وان لا يلقي عنهُ هذا الحمل ما دام حيًّا . فكم يصيبهُ من الالم والعذاب وكم يئنُّ ويتنهَّد لانهُ لا يرى لهُ مناصًا من هذا السجن الابدي ولا امل لهُ بالنجاة من اوصاب هذا القيد المستمر ؟ هكذا يكون حكم العادة في الانسان فان سلطانها ليس باخف وطأة من هذا السلطان . فما احرج هذا الملك — مسلك اختيار العادات — ولا يخفى ان الانسان سهل الالتحاف بالعادات حتى قيل انها "تجري اليهِ على مزلقٍ منحدر" خصوصًا ما كان منها رديئًا لان

المرء يجذب بجمائلها على ابعد مسافة وباقل الفواعل . نعم انهُ لا ينقاد اليها لاول وهلة الاَّ انهُ مع ذلك ينبغي ان يكون على حذر منها لانها تقوى عليهِ بقانون الطبيعة شيئاً فشيئاً حتى يعتو اليها صاغراً . فالحبل الذي يستعملهُ الملاحون في جر اعظم السفن ثقلاً مركب من خيوطٍ دقيقة الى الغاية والياف واهية جداً . وهذا الحبل ترتمي تحت قدميهِ اعظم السفن هولاً وتنقاد اليهِ اعلاها جسماً وفخامةً . هكذا تكون العادات فان ما يظهر حقيراً فيها بالتجزئة تنقاد اليهِ العامات الرفيعة والنفوس العالية

ولا بد من العوائد للانسان لانها كما نعلم المجرى الذي تسير فيهِ الاعمال والافكار والاحساسات ولا فرق بين ان كانت رديئةً او صالحةً لانها لا بد من ان تحد بطبائع الانسان حتى تصير جزءاً منها او "طبيعة ثانية لهُ" قيل ان رجلاً انكليزياً كان لا يشعر بدفء والنار قريبة منهُ الاَّ اذا وضعت في محلٍّ قديم تعوَّد ان يدفأ فيهِ نحواً من متين سنة . وقيل ان رجلاً قضى في سجن الباستيل ردحاً من الزمان فبعد ان خرج منهُ طلب ان يرجع اليهِ ليقضي باقي عمرهِ فيهِ لانهُ تخلق في السجن باخلاق لم يستطع تغييرها وهو خارجهُ

والشبان الذين اخاطبهم الآن لا بد انهم يهتمون باتخاذ عوائد تنطبق على افكارهم واعمالهم وربما كان اكثرهم الآن في جهادٍ متواصل في استعمال الاختبار والعقل لاتخاذ اسلم العوائد التي ينالون من ورائها السعادة والنفع . اني لا استغرب انهم يبذلون هذا المقدار من الاهتمام بهذا الامر الخطير ولكني استغرب لان هذا الاهتمام لم يصل الى حدهِ الواجب لانهُ ينبغي ان يكون عمل الحياة المستمر

افرض يا هذا انهُ قُدِّر عليك ان تختار نوعاً من الملبوس لا تغيرهُ مدى الحياة فكم من الفكر والتمييز يلزمك لتنتقيَ ذلك الملبوس . ولو أُمر عامل ان يستعمل فأساً كل ايام حياتهِ فاي حكمة وتمعن يلزمانهِ لانتقاء تلك الفأس . هذه المفروضات اقل خطراً من انتقاء العوائد النافعة

فكما تريد ان تحلي جسمك بملبوس مريح مناسب مقبول اي ليس ضيقاً يمنع نمو الجسم ولا هو فوق ما يناسب احوالك ولا مستهجناً في ذوق العقلاء هكذا ينبغي ان تتروى بكساء العوائد التي تضمن لجسمك نمواً ولصحتك اعتدالاً ولثروتك ازدياداً ولآدابك ارتقاء وامتداحاً . وكما ان الجسم يظهر بهاؤهُ واعتدالهُ في الرداء المنتظم المريح هكذا جمال النفس وبهاؤها يظهران في العوائد السليمة الصالحة والسجايا الكريمة الفاضلة

ولا ارى من صعوبة في اقتباس العوائد الصالحة متى وجدت الرجولية الحقيقية والثبات الواجب "فمن تعود البطالة من صغرهِ يقدر ان يعمل عشر ساعات في النهار في حمل الحجر

اذا ابتدأ ذلك بجدٍ مع المثابرة والاَّ فكيف يقوم العامل اليومي بهذ العمل الشاق ان كان الامر غير ممكن . وما يقال في الامور المادية يقال في غيرها

ولا اريد ان اتعبك ايها القاريء بان اذكر لك كثيرًا من الفوائد التي ارى الحاجة ماست اليها ولكني اخص ما كان منها هامًّا للشبان والامل ان يكون منهم كثيرون ممن يقرأون باهتمام هذه الجمل البسيطة لاني قصدت ان اجعلها موجزة للغاية ومحدودة الالفاظ خالية من التعميق حرصًا على وقت القارىء ومع ذلك فربما لا اتمكن الآن ان اكتب الاَّ في عادتين

واول عادةٍ اجعلها بيتًا لقصيد البحث هي هذه : —

﴿ عيّن ما ينبغي ان تفعل في يومك ﴾ . العمل اليومي خطوة في سبيل حياة السعادة التي يقصدها عقلاء القوم ولا يوجد سبيل محفوف بالمخاطر وملآن بالمعاثر نظير هذا السبيل . ولذا يحتاج السائرون فيهِ الى تمعن تام وحكمةٍ عظيمة وتدبر جدير بمن يطرقون سبيلاً كهذا

السائرون في النجود والسهول يحتاجون الى خريطة معينة موثوق بها تكون رائدًا لهم ومرشدًا لا يتجاوزون حدودهُ وبهذا المعنى يقال ان العامل او الساعي يحتاج في سعيهِ الى رائدٍ يعلن لهُ اعمال يومهِ حتى يتدبرها

وحياة الانسان طالت او قصرت ينبغي ان توجه اعمالها الى غاية واحدة . والمرء الذي يسعى لغير غاية يهوي بنفسهِ الى مهاوي الضلال والجهالة ومثلهُ كمثل سفينة في الاوقيانوس لها قوة للسير ولكن لا وجهة لسيرها تلعب بها الرياح وتخبطها الامواج حيث شاءت . هكذا الانسان الذي يعمل كثيرًا ويستفيد قليلاً — فهو كثير الكارات قليل البارات . فالى مثل هذا يقال خير لهُ ان يعين غايةً يسعى اليها وآمالاً يرقبها وهذا لا يتأتى الاَّ بتعيين اعمال كل يوم على حدتهِ

من الناس من يخرج من بيتهِ لغاية غير معروفة او على الاقل غير معينة فيمشي كثيرًا ويرى اصحابًا كثيرين ويتكلم كثيرًا وعندما يحاسب نفسهُ على فراشهِ يجد ما اقل ما افاد بهِ او استفاد منهُ والسبب لانهُ لم يعين لخروجهِ عملاً خاصًّا وربما قضى اكثر وقتهِ يتأمل في نوع الفائدة التي يبغيها

كان رجل عالمٌ اذا سألتهُ عن مسألةٍ يحتاج الى جوابها دقيقةً اجابك " لا وقت لي للجواب لاني لم احسب لها حسابًا قبل خروجي من بيتي " فلا غرابة ان صار لهذا العالم وامثالهِ المكان الاول بين البشر قاطبةً لانهم يقدرون الحياة ويرتبون اعمالها فينتفعون او ينفعون بها . اما ما يظهر لنا من التقصير في هذا الامر فهو علة انحطاطنا وسبيلنا ان ننهض الى اتخاذ هذا المبدإ لانهُ من اشرف وانفع مبادىء الحياة بل ان تعيين الاعمال اليومية مما يجهز القوى

العقلية بفعل التنبُّه الى الشروع فيها بسهولة و يعطيها فرصةً لزيادة الامعان وثبات العزم. قال احدهم " لم اقدم على عمل من خمسين مما عملت بتدبير سابق ولكني ندمت على كل عمل اكملتهُ بدون تدبُّر "

٢ ❊ اشغل وقتك بالعمل والجد ولا تجاوزهُ الى آخر حتى ينتهي ❊

" الاجتهاد يمين النجاح " حديث المفلحين في كل العصور. لم يقل " المواهب " او الفرص يمين النجاح لانها قد تكون يد الكسول كاللؤلؤة يد الجاهل لا يعرف قيمتها ولا يحسن التصرف فيها. والاختبار يؤيد ان اكثر اصحاب المواهب العظيمة ليسوا اصحاب جد وامانة ولو استعملوا مواهبهم حسب هذا المبدإ لاستفاد العالم منهم فائدة تذكر ولكنهم كما يؤيد الاختبار يستعملون مواهبهم العظيمة كحمار يتوكأون عليهِ للراحة والخمول لا ليطرقوا بهِ ابواب المجد والنجاح وبهذا تصير المواهب التي لهم كقطعة من الحديد تترك بلا استعمال الى ان تأكلها في الهواء وتصدأ بفعل الطبيعة حتى تأكلها العوارض وتفنيها الايام

والاجتهاد لا يشترط فيهِ ان يصحب المواهب السامية لانهُ وحدهُ كافٍ لنيل اسمى اغراض الحياة. وقد يجلب لاهلهِ ما لا تجلبهُ المواهب السامية بأسرها. والاجتهاد الذي اقصدهُ ليس من مستغربات الطبيعة او من الامور غير الممكنة لان معناهُ ان يشغل الانسان فراغ وقتهِ بعمل يتدبرهُ ليال من ورائهِ اتمام غاية حياتهِ السامية ولذا فهو ميسور لجميع الناس

ينتج من ذلك انهُ لا عذر للضعفاء في تقصير آمالهم بالحياة زعماً منهم ان قواهم لا تكفي لنيل تلك الآمال لان كنوز المجد والسعادة ترحب بكل مجتهد

فاذا وعد غنيٌّ بجائزة من يقطع مسافة معلومة ورأيت بين الاصحاء اعرج يخمع على تنفيذهِ قاصداً قطع تلك المسافة علمت ان الغني لا يتأخر عن مكافأة هذا الرجل بنفس ما كافأ بهِ غيرهُ ولو وصل بعدهم بزمن. بل ربما كافأ الاعرج اضعاف ما يكافئ بهِ غيرهُ. هذا عين ما يجدهُ الذين يطرقون باب الآمال بيد الاجتهاد لا بيد المواهب ومساعدة الفرص ... قال المثل الايطالي من يسر متمهلاً يسر طويلاً وقال الشاعر

لاستهلنَّ الصعبَ او ادرك المنى فما انقادت الآمالُ الاَّ لصابرِ

نستغرب كثيراً حينما نرى او نسمع بعدد المجلدات الضخمة التي الفها كتَّاب العصور الماضية. ولكن اذا علمنا ان سر تلك الاعمال هو استعمال الاوقات بالاجتهاد زال استغرابنا لان الحياة المشغولة بالاعمال تستطيع ان تملأ العالم من الفوائد. وهذا عين ما امتاز بهِ النجار بن مريم الذي استعمل كل فرصة للعمل والفائدة فغير العالم روحيًّا وادبيًّا وغرس اصول الفضيلة واسس قواعد المدنية

بعض الشبان معرضون حينما يبتدئون بعمل لان يظهروا جهداً فائقاً ولكنهم لا يلبثون ان يملوا ويميلوا الى قضاء وقت اطول مما يلزم في الراحة من عناء ذلك التعب . وفي هذا الطريق من الخطر ما لا يخفى

وغيرهم عرضة لان يحبوا العمل الجديد فيأتونهُ بكل القوة ثم يمقتونهُ ويؤثرون الكسل على العمل به . هولاء لا يجنون شيئاً من اتعابهم . يزرعون كثيراً ولا يحصدون شيئاً . يقال ان الذي يمشي مستعملاً كل قوتهِ ثلاث ساعات كل يوم دار حول الكرة الارضية في سبع سنوات وذلك بفعل الاستمرار فاذا قضى عشر ساعات يدور حول الارض في نحو سنتين وهو زمن قليل في ذاتهِ وكثيرٌ باعتبار المثابرة وعدم الانقطاع . هكذا يقدر من اراد ان يقطع اي فلاةٍ من فلوات المعارف والتقدم

المنود يؤثرون المثل الآتي على غيرهِ من الامثال وهو " المشي خير من الجري والوقوف خيرٌ من المشي والجلوس خيرٌ من الوقوف والنوم خير من الجلوس " . وكان هذا المثل وحدهُ علة لانحطاط الامة عموماً فليتنبه القاريء

ولا يخفى ان الله جعل للمرء عمراً محدوداً واعدَّ لهُ من الازل عملاً يناسب ذلك العمر ولذا يلوح لي ان من لا يستعمل كل وقتهِ فاما انهُ يستجهل الله لانهُ اطال عمرهُ بغير قصد واما انهُ يدل على تقصيرهِ في اتمام ما قصد الله ان يتممهُ بهِ ونظير هذا انسان لا يستطيع عند ما يبرح هذه الحياة ان يقول " اكملت السعي "

اكد احدهم لصاحبهِ في جواب لهُ انهُ لم يمضِ عليهِ يومٌ لم يكتب فيهِ شيئاً من مؤلفات او يقرأ جانباً من المطولات وان هذا كان سبباً في رفعتهِ وداعياً لعلو شأنهِ . وقد قرات الان عن رجل كان عظم النفوذ بين قومهِ يدعى (روتر فورد) لم تكن لهُ لذة الاَّ في الاتعاب ولا سعادة الاَّ في العمل كان يلقي كل يوم خطاباً دينياً او موعظة ادبية مكتبة ويصلح مقالات احدى الجرائد قبل الطبع ويزور المرضى ويفتقد بعض العائلات ويعلم في احدى الكليات ويقضي وقتاً مع بعض الشبان لحثهم على الاهتمام باعمال الحياة الخطيرة وفوق هذه الواجبات اليومية وُجد بعد موتهِ ان لهُ من المؤلفات ما يزيد عن المائة مجلد في مواضيع مختلفة حتى يخال للمتأمل ان حياتهُ كانت اقصر من ان تكفيهُ لكتابة تلك المجلدات وكانهُ لم يكن يعوزهُ وقتٌ للاكل والشرب والراحة والرياضة نظيرنا

وقد يظن كثيرون انهُ لا يجوز ان تنهك القوى دائماً بالعمل لان ذلك يحرم الانسان السعادة والحال ان العمل بعكس ذلك يقوي البنية الادبية والمادية ويلذ للنفس ويهذب

الصفات ويرقّي المدارك وان شئت فقل ان عدم العمل هو الذي يضعف القوى العقلية والجسدية. فقد سأل مرة المركيز سبينولا السر هوراس لِمَ مات اخوك فاجابهُ مات لعدم العمل يا سيدي فقال ذاك نعم فان ذلك كافٍ لقتل العلم والفضيلة بأسرها. وقد قالت الاتراك في امثالها "الرجل العامل يحاربهُ شيطان واحد اما الكسلان فيحاربهُ الف" وقال المثل الاسباني "العامل يجربهُ الشيطان اما الكسلان فيجرب الشيطان". فكم تكون حياتك ايها الشاب العزيز سعيدة اذا شغلت وقتك بالعمل

ويوجد مانع عظيم يؤخر نجاح المشتغلين ويذهب باتعابهم ادراج الرياح وهو سرعة التنقل من عمل الى آخر قبل ان ينجز. فقد يشغلون كل اوقاتهم بالعمل ومع ذلك فتركهم الاعمال كالاثمار الغير الناضجة تجعل لهم زرعاً كثيراً متعباً بلا حصاد مفرح. فالبعض يقرأون او يسمعون سيرة رجل عظيم فتأخذهم الغيرة الطبيعية ويرتاحون الى محبة الاقتداء بالصفات الجليلة التي كانت سرًّا لنجاحهِ فيؤثرونها على غيرها الى حين ولكن اذا ما انكشفت لديهم صعوباتها هجروها ولازموا طريقاً آخر. قال احدهم "اعرف رجلاً سمع عن عالم كتب على بابهِ ينبغي للزائر ان يشترك مع اهل البيت في اعمالهم فكتب هو ايضاً ذلك على بابهِ بحروف واضحة وانكبَّ زمناً على اعمالهِ اليدوية وبعد قليل سمع بعضاً يتمدحون مؤلفات العالم بلاخستون فرمى المصنوعات التي في يدهِ غير كاملة واخذ يقرأ مؤلفات ذلك العلامة وبعد ان سرَّ بها في البداءة ورأى متاعب المطالعة سمع رجلاً يقول ان المرء يستفيد من المحادثة اكثر من المطالعة (وهي حقيقة مشكوك فيها عند العقلاء) فترك مطالعتهُ وابتدأ يجول من بيت الى آخر ومن صاحب الى آخر ليلتقط المعارف المزعوم نيلها بهذه الصورة وهكذا سار كل حياتهِ عطشاناً والماء تحت رجليهِ. فرجل كهذا قلما تستفيد منهُ الهيئة الاجتماعية

الرجل الذي يتدبر العمل بحكمة هو الذي يبداهُ بجدٍّ معتدل واهتمام عظيم ويتقدم فيهِ حتى ينجزهُ واذا حالت سحائب الصعوبات دونهُ تهبّ نسمات الثبات والشهامة الحارة فتقشع تلك السحب ويظهر بعدها جوُّ المعالي والآمال صافياً رائقاً. اما الرجل الذي يبدأ بعمل ولا يتممهُ ويؤجل عمل اليوم الى غدهِ والذي يقضي وقتاً في التأمل فيما ينبغي ان يفعل اولاً فهو رجل قليل التدبر عديم الالمام بقيمة الوقت الثمين واعمال الحياة الخطيرة فيحتاج ان يعوّد نفسهُ هذه العادة الثمينة التي كانت سرًّا لنجاح كثيرين وفاتحة خير عظيم على العالمين وسبباً في تعظيم الحياة وهي ان يشغل وقتهُ بعمل ولا يتجاوزهُ الى آخر حتى ينتهي

عياد عبد الله